الفصل التاسع

إلى بلاد الشمس المشرقة

ما بين الجنة والنار، كان عام ١٩٨٩ هو هذا الشعور، وهذا العالم المدهش والفظيع فى آن معًا.

فى ربيع ذلك العام، أعلن الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة عن منحة تدريبية من مؤسسة (جايكا) اليابانية JICA لأحد العاملين لديه، وكان موضوعها «إدارة الجهاز الحكومى القومى«national government administration».

ولأن اليابان نظام سياسى موحد لا يعرف النظام الفيدرالى، فقد كان المقصود هو تدريب بعض أبناء العالم الثالث، على نظام إدارة الخدمة المدنية civil service والنظام الإدارى الحكومى فى ذلك البلد الجميل.

وكالعادة تقدم عدد كبير من الباحثين والموظفين من داخل الجهاز، ومن أجهزة حكومية أخرى للحصول على تلك الفرصة النادرة، وتقدمت كغيرى من العاملين، وجرت التصفيات الأولية بين المتقدمين، عبر نظم الاختبارات الشفوية interview التى تقوم بها لجنة مكونة من ثلاثة من وكلاء الوزارة بالجهاز، وبعد فترة استقر الرأى على اختيار ثلاثة ممن تصورتهم اللجنة أفضل العناصر المتقدمة، ترسل بهم إلى الاختبار الشفوى الذى سيتولاه ممثلو هيئة (الجايكا) اليابانية فى القاهرة وكنت أنا واحدًا منهم.

وكانت الخطوة التالية هو التوجه إلى مقر هيئة «الجايكا» فى حى الدقى، من أجل استكمال تلك الاختبارات من خلال إجراء مقابلة شفوية مع أحد العاملين فى تلك الهيئة، وقد جرت المقابلة ودارت حول تعريف المرشح candidate لنفسه، ومؤهلاته العلمية، وطبيعة عمله وتخصصه فى العمل، وخبراته، وما يتصوره أو يرغبه من تلك المنحة التدريبية من الناحيتين العلمية والمهنية، وكلها بالطبع باللغة الإنجليزية.

أيام قليلة، وأرسلت هيئة (الجايكا) باسم المرشح الذى وقع عليه الاختيار، وكنت أنا المحظوظ بتلك المنحة.

كان هذا هو أجمل إحساس عايشته فى حياتى فى تلك الفترة، فها هى «رحلة العمر» إلى اليابان، أرى فيها التقدم العلمى، والازدهار الاقتصادى، والانضباط المجتمعى؛ الذى قرأت عنه منذ سنوات فى الكتب والمؤلفات الاقتصادية والسياسية.

وهذه هى المرة الأولى التى تطأ فيها أقدامى خارج مصر، نعم هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها العالم، أو بعض أجمل بقاعه، كما أنها الفرصة التى ستتيح لى أن أرى فيها (بلادى) من خارجها، بلا رتوش شوفينية، كيف يراها العالم؟ وكيف تتعامل معها وسائل الإعلام فى العالم المتقدم؟ وما هى نظرة الإنسان اليابانى إلى هذه المنطقة العربية، وخصوصًا مصر؟.

ثم إنها الفرصة التى ستتيح لى أن أخرج من عنق الزجاجة المالى، بعد أن تزوجت وأصبحت مدينًا بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه.

نعم .. كانت رحلة العمر.

وكانت رحلة الإنقاذ.

وكانت محطة استراحة المحارب الذى أمضى بعض أجمل سنوات شبابه ـ وأنا أقارب على الاثنتين والثلاثين عامًا ـ ما بين السجن والمطاردات الأمنية، والعمل السياسى السرى.

نعم .. كانت القشة التى تعلق بها الغريق.

وكانت النقطة الفاصلة بين مرحلة من العمر مضت، وأخرى تكاد أن تبزغ فى المستقبل.

وأخذت فى إعداد نفسى وأوراقى إلى «رحلة العمر»، وها أنا لأول مرة فى حياتى، أقوم باستخراج «جواز سفر» عاجل حصلت عليه خلال يومين، فلم يبقَ على موعد

السفر سوى أيام قليلة، تنقطع بعدها كل المصالح الحكومية المصرية عن العمل، بسبب حلول إجازة عيد الأضحى.

كان البرنامج التدريبى يبدأ فى التاسع من مايو، وينتهى فى الثالث والعشرين من يونيو عام ١٩٨٩، وكنت أسابق الزمن، ولم يبقَ سوى ثلاثة أيام من أجل إعداد أوراقى والحصول على إذن السفر للموظفين، أو ما كنا نطلق عليه «البطاقة الصفراء».

ذهبت مسرعًا إلى مكتب شركة الطيران اليابانية (JAL) فى فندق هيلتون القاهرة، ودفعت مبلغ تأمين التذكرة المقرر (وقدره حوالى مائة وعشرين جنيهًا)، وأمسكت بالتذكرة فى يدى، وفى اليوم الأخير قبل السفر، كان من الضرورى الحصول على «البطاقة الصفراء» الذى كان معمولًا به ـ وقتئذٍ ـ حيث ينبغى على كل موظف حكومى أن يبرز هذه البطاقة لسلطات المطار قبل المغادرة، حتى يسمحوا له بالسفر وركوب الطائرة.

وذهبت مسرعًا، وأنا أكاد أطير محلقًا فى السماء، إلى مكتب الأمين العام للجهاز المركزى طالبًا «البطاقة الصفراء» بعد أن صدر القرار الإدارى بالسفر إلى اليابان، ولم أكن أدرى أن مؤامرة على أعلى المستويات تحاك ضدى، وتكاد تعصف بكل آمالى وطموحى فى تلك الرحلة / الحياة.

فى ذلك المكتب، أشار أحد الموظفين بأن علىَّ أن أقوم باستيفاء نموذج إخلاء الطرف ـ ولم يكن ذلك صحيحًا قانونيًّا أو إداريًّا على الإطلاق، فقد كنت هنا فى حالة مأمورية تدريب أو منحة تدريب وليست استقالة أو إنهاء خدمة أو نقل إلى جهة إدارية أخرى ـ وبدأت فعلًا بالمرور سريعًا على الإدارات المختلفة لاستيفاء ذلك النموذج الذى يفيد بعدم وجود عهدة حكومية لدىَّ، ولم يبقَ سوى الإدارة العامة للشئون القانونية، فتوجهت إلى سكرتير تلك الإدارة، وكان من العناصر التى تدير شبكة «رشى» على مستوى الجهاز، وطلبت منه التوقيع على النموذج الذى يفيد بأنه

ليس لدىَّ متعلقات لدى الإدارة العامة للشئون القانونية. وإذ بى أجد نفسى فى أغرب موقف فى حياتى الوظيفية، ولحظة بعد أخرى كانت تتكشف لى أبعاد تلك المؤامرة!.

أخذنى «شاكر» من يدى بهدوء، أقرب إلى حركة الأفعى قبل قنص الفريسة، وأخبرنى بأن هناك موضوعًا يحتاج إلى المراجعة من مدير عام الشئون القانونية، وكان الأخير يحقد علىَّ حقدًا بلا حدود، ويكرهنى كراهية التحريم، بسبب كشفى من قبل لبعض تجاوزاته وتجاوزات إدارته فى حق كثير من العاملين بالجهاز، والتلاعب أحيانًا بأقوال الموظفين الخاضعين للتحقيق فى تلك الإدارة.

وأفهمنى «شاكر» الحاصل على دبلوم التجارة وصاحب الكلمة النافذة فى الإدارة القانونية! ـ بأن للموضوع أبعادًا قانونية، حيث إن قضية أمن الدولة التى سبق وقبض علىَّ فيها عام ١٩٨٥ (المحضر رقم ٧٠ لسنة ١٩٨٥) لم تغلق بعد، ولم تخطرهم نيابة أمن الدولة بالتصرف فيه سواء بالحفظ، أو بالإحالة إلى المحاكمة، ولم يكن لهذا الكلام من ظل قانونى على الإطلاق.

كنت أسارع الزمن، والدقائق، فلم يبقَ سوى ساعتين تقريبًا، وينتهى آخر يوم عمل فى الجهاز، وفى كل المصالح الحكومية، وبعدها سوف تسرى إجازة عيد الأضحى.

قلت لمدير عام الشئون القانونية، أن هذا التصرف غير قانونى، ولو كان هناك أى رغبة من أجهزة الأمن فى منعى من السفر، فإن هذا سوف يتم فى صالات المطار، وليسوا هم المعنيين بها، وطلبت عرض الأمر على رئيس الجهاز «د. حسين رمزى كاظم»، متصورًا قدرته كرجل أمن واستخبارات سابق على فهم أبعاد الموضوع ومناصرتى فى «رحلة العمر» (وثيقة رقم ٢١).

ودخلنا معًا إلى مكتب الرجل، وعرضت عليه الموقف، فطلب رأى المستشار القانونى له وهو المستشار «طنطاوى» الذى يشغل فى الوقت نفسه درجة «نائب رئيس

مجلس الدولة»، فإذا بالرجل يشير علينا الاتصال بنيابة أمن الدولة لمعرفة الموقف فى القضية المذكورة.

بدا لى من الواضح أن هناك تلاعبًا بالأمر كله، وهناك من لا يرغب فى سفرى، ومن بينهم رئيس الجهاز نفسه، الذى على ما يبدو قد فوجئ بموافقة اليابانيين على اختيارى دون بقية المرشحين، فأسقط فى يديهم، ووافقوا على إصدار قرار السفر، ولكنهم فى الجوهر لا يرغبون فى إتمامها.

وبدأت فى مكتب مدير عام الشئون القانونية، تمثيلية عجيبة، فالاتصال التليفونى بالنيابة العامة لا يتم بسهولة ويسر، والدقائق تمر، وقد بدأ الموظفون فى الجهاز، إغلاق مكاتبهم استعدادًا للمغادرة، وبعد عدة محاولات مضنية، لم يفدنا الموظف المسئول فى النيابة العامة بشىء، بل إنه اندهش على ما يبدو من السؤال ذاته.

ولم يبقَ لى سوى المناورة الأخيرة، فأعلنتهم بأن الله لم يقدر لى بهذه الرحلة، وأننى قد أسلمت أمرى إلى الله، وانتهى الأمر، فبدا عليهم الارتياح، لقد نجحوا فى إفساد رحلتى .. رحلة العمر لأى موظف مصرى إلى اليابان، وبدا واضحًا نظرة التشفى والانتقام، وفى اللحظة نفسها كنت قد اختلست اتصالًا تليفونيًّا لكى أطمأن أن «البطاقة الصفراء» قد صدرت فعلًا ووقعها الأمين العام، وأمهرت بخاتم «النسر»، فأدركت أن هؤلاء المتآمرين قد فاتهم أن يمنعوا الموظف لدى الأمين العام سرًّا من إنهاء إجراءات استخراج تلك البطاقة.

وفى لمح البصر، وبمجرد خروجى من مكتب «المؤامرة» كنت أقفز على درجات السلم من الدور العاشر، حيث مقر الإدارة العامة للشئون القانونية، إلى الدور الأول حيث مقر مكتب الأمين العام، لأتسلم «البطاقة الصفراء» وأضعها فى جيبى، وأتحرك إلى سيارات الجهاز التى بدأت للتو فى مغادرة المبنى وسط تهنئة العاملين لبعضهم البعض بحلول عيد الأضحى المبارك.

ذهبت من فورى إلى حيث السيارات التى تقلنى إلى منزلى، وأنا لا أكاد أصدق كل ما جرى من حولى فى تلك الساعات العصيبة، من مؤامرة محبوكة انخرط فيها عدد من قادة الجهاز على رأسهم رئيس الجهاز ومستشاره القانونى ـ الذى هو قاضٍ من قضاة مجلس الدولة ـ مرورًا بمدير عام الشئون القانونية وبعض المعاونين له، وقد نجحت فى اللحظات الأخيرة من المناورة، والإفلات بتلك «البطاقة الصفراء» التى يستحيل دونها عبورى حواجز مطار القاهرة.

ولعلنى ـ بعد ما رأيت وعايشت فى اليابان طوال شهرين فى «رحلة العمر» تلك ـ كنت سأندم أشد ما يكون الندم لو لم أنجح فى تجاوز تلك المؤامرة والسفر رغم أنف هؤلاء.

على أية حال، أخبرت زميلى وصديقى فى الجهاز «ناصر زكى» بكل ما جرى، وطلبت منه بعد عودته من إجازة عيد الأضحى إلى الجهاز، أن يتوجه من فوره إلى الإدارة العامة للشئون القانونية، حاملًا علبة «شيكولاته»، موزعًا إياها على العاملين فيها، ومعلنًا إياهم أنها هدية من شخصى بعد أن سافرت فعلًا إلى اليابان، ومبلغًا إياهم تحياتى التى أرسلها لهم من «طوكيو».

وقد فعلها «ناصر» كما طلبت ورغبت بالضبط.

وفى المطار سار كل شىء بصورة طبيعية، ومع كل خطوة داخل المطار، كنت أتصور أن هناك من ينتظرني من رجال الأمن، ليمنعنى من «رحلة العمر»، وبمرور كل خطوة كنت آخذ نفسًا عميقًا، استعدادًا للخطوة اللاحقة. وما كدت أصل إلى بوابة الطائرة، حتى تنفست الصعداء، وشعرت بعدها أننى أخطو إلى عالم آخر تمامًا، حيث الحرية التى حرمت منها وشعبنا فى مصر لعقود طويلة، وكأننى عصفور يطلق سراحه من قفص حديدى.

وحتى لحظة بدء دوران عجلات الطائرة، كان يتملكنى شعور بأن رجال الأمن المصريين سوف يفتحون أبواب الطائرة اليابانية، ليصطحبونى خارجها معلنين للكافة أننى ممنوع من السفر، ولم أتخلص من هذا الشعور نهائيًّا، إلا بعد دوران محركات الطائرة، وإذ بعجلاتها تتحرك على مدرج المطار، وها أنا أقلع إلى السماء، فأدركت لحظتها أننى أغادر فعلًا قفص الوطن.

كانت «الجايكا» قد حجزت لى مقعدًا فى درجة business class، أضفى هذا على الرحلة التى تستغرق إحدى وعشرين ساعة متواصلة، طابعًا من الرونق والراحة. بكل جمال ورقة طاقم الضيافة اليابانى، بلبسه المميز الجميل، الذى يجرى تغييره كل عدة ساعات (الأحمر، الأزرق، الأخضر) وكأنهم عصافير «الكناريا» تغرد لحنًا من الرقة والعذوبة.

ولم يكن لى القدرة على المقارنة إلا بعد أن قررت العودة على الطائرة المصرية من طوكيو إلى القاهرة فى الخامس والعشرين من يونيو، فعرفت أية نعمة كنت أتمتع بها مع طاقم الضيافة اليابانى.

بين السماء والأرض، كنت أقرب إلى حلم «الجنة الموعودة» الواردة فى الكتب الدينية المقدسة، تأخذنى أفكارى وتصوراتى إلى بعيد، وحالة «الوجد» هى الحافز والدافع لشعور أخاذ بالعشق للمجهول.

وفى رحلة طويلة، حطت الطائرة فى محطات انتظار متعددة للتزود باحتياجاتها، فى جدة والكويت وكراتشى وبانكوك، ثم ها هى «طوكيو» تتلألأ بأضوائها الساحرة، لتتراقص داخلى مشاعر مدهشة بالرغبة فى الاكتشاف والمعرفة واحتضان ذلك الحلم المجهول.

فى مطار «ناريتا» الذى يبعد حوالى ثلاثين ميلًا خارج العاصمة طوكيو ـ كان فى انتظارى فى لوحة الإعلانات، رسالة تتضمن قائمة كاملة بخطواتى القادمة، خرجت إلى حيث استقليت سيارة أجرة بصحبة اثنين آخرين من ضيوف (جايكا) قادمين من ألبيرو وتايلاند، واتجهنا إلى مركز الضيافة والمؤتمرات التابع لهيئة (الجايكا) فى منطقة «أتشى جايا».

كان مركز «أتشى جايا» هو الأكثر رقيًّا وجمالًا مقارنة بمركزها الثانى الموجود فى منطقة «الهاتاجايا».

ابتسامة استقبال رقيقة تميز اليابانيين عادة، شبابًا كانوا أو فتيات وقدموا لى مفتاح الغرفة رقم (٦١٠) التى عشت فيها أجمل خمسين يومًا فى حياتى كلها.

حملت حقيبتى ومفتاح غرفتى بالدور السادس، وأخذت أبحث عن الغرفة (٦١٠). المكان كله تخيم عليه سحابة من السكون والسكينة، الطرقات مغطاة بالموكيت الجميل، وفى كل طابق يوجد الخدمات الإضافية وميزان الأشخاص وغيرها من الخدمات، وبمجرد أن وضعت المفتاح فى باب الحجرة، شعرت براحة مدهشة. الغرفة صغيرة قد لا تتجاوز مساحتها ثمانية أمتار مربعة، ولكنها مؤثثة بصورة جميلة؛ سرير صغير ودولاب ملابس، ومكتب صغير ومقعد، وجهاز للتلفاز، مرفق بها حمام على أحدث طراز بقدر بساطته.

خلف كل هذا نافذة عريضة ـ تكاد تكون بعرض الحجرة كلها ـ مغطاة بستارة رقيقة، ما كدت أزيحها جانبًا حتى وجدت نفسى مأخوذًا بروعة المنظر أمامى، فمدينة «طوكيو» بأضوائها الليلية الجميلة تكاد تكون أمام ناظرى مباشرة، وأسفل النافذة ملعب رملى للتنس.

على مرمى البصر كانت هناك أربعة أبراج تتلألأ على ساريتها أضواء حمراء تحذر الطائرات وتنبهها إلى ارتفاعها، أعطتنى انطباعًا حسيًّا يدغدغ المشاعر ورغبتى فى العناق والحب.

لحظات قصيرة أمضيتها، وأنا أتأمل المكان، بمعالمه ومفاتنه، وإيحاءاته الرمزية، وفوق هذا وقبله، أدخلتنى عالمًا سحريًّا لم آلفه فى حياتى من قبل، تلك الحياة الصعبة والجافة التى طالما اختصرتها فى كلمة واحدة «الحرمان».

نعم .. لقد كانت طفولتى قصة تراجيدية فى معانى «الحرمان».

وكان شبابى مسيرة جافة للبحث عن دور ومكانة بين أقرانى وداخل نفسى.

وكانت سنواتى الأخيرة فى الجامعة، ثم بعدها، مشوارًا طويلًا من التخبط والحب المفقود ومن كلمة «الحرمان».

وكانت مسيرتى السياسية السرية والعلنية، تجسيدًا لمحاولات مقاومة الفشل والنجاح فى إنقاذ الوطن، فلم يتحقق هذا ولا ذاك.

كنت هنا ـ فى اليابان ـ أدخل عالمًا جديدًا، وحنينًا إلى قلبى ونفسى ومداركى.

وهكذا وجدت نفسى ومنذ السويعات الأولى لوجودى على أرض بلاد «الشمس المشرقة»، أمتطى قلمًا لأكتب عن اليابان، وأخط مقالتى الأولى عنها «طوكيو .. نافذة على سحر الشرق» التى أكملتها على امتداد فترة وجودى فى تلك البلاد الجميلة، وحتى رحلة عودتى إلى مصر، على متن إحدى طائرات شركة مصر للطيران، ولم يكتب لها أن تنشر إلا فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر من العام نفسه.

وإذا ما عاودت بذاكرتى لتلك الليلة الأولى فى جنة «عدن» تلك، فإننى أجدنى عاجزًا عن التذكر، هل استطعت أن أنام ليلتى، أم ظللت هكذا مستيقظًا حتى شروق

شمس اليوم التالى، وكل ما أعرفه وأشعر به حتى يومنا هذا، أننى عشت أجمل ليلة منذ سنوات بعيدة، مقبلًا على الحياة وعلى النشاط والحركة، وكأننى عدت عشر سنوات أو أكثر من عمرى شابًّا صغيرًا مندفعًا إلى اكتشاف ذلك العالم السحرى الجديد.

استيقظت باكرًا، وتوجهت من فورى إلى المطعم بالطابق الأرضى، ووجدت نفسى وسط عشرات من القادمين من بقاع الأرض كافة، لحضور برامج تدريبية متنوعة تنظمها هيئة المساعدات الفنية اليابانية (جايكا)، وكأننى فى أروقة الأمم المتحدة.

وفقًا لنظام الإفطار، لم يكن يحق لى سوى اختيار ثلاثة أنواع من الأصناف، بالإضافة بالطبع إلى فنجان من «الشاى» أو «القهوة». تجنبت بطبيعة الحال ما لا أعرفه من الأصناف، وطلبت الأقرب إلى مطبخنا العربى والمصرى؛ بيض مسلوق أو مقلى، جبن وقطعتين من الخبز (التوست)، بالإضافة إلى كوب من الشاى الهندى، وجلست على المائدة وسط آخرين، وحاولت التعرف إلى الزملاء، كانت إحداهن من الأرجنتين، تمتلك جمالًا أخاذًا، كانت من الذكاء بحيث لمحت فى نظرة عيناى شيئًا من الإعجاب بها، فلم تصدنى، وإن كانت لم تذهب معى إلى بعيد، وظل بيننا طوال فترة وجودنا فى «أتش جايا» تلك النظرة الحانية، ولو من بعيد.

وهناك وجدت شابين مصريين، أحدهما مهندسًا زراعيًّا جاء إلى اليابان منذ شهرين ماضيين وسوف يستمر برنامجه التدريبى لشهور أربعة إضافية، وكان فى الوقت نفسه شقيقًا لزميلة من الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، أما الثانى فكان طبيبًا جراحًا فى جامعة عين شمس، وأصبح بعدها أستاذًا جراحًا فى طب الأطفال.

تعارفنا سريعًا، وتبادلنا الزيارات، ودار الحديث بيننا حول اليابان، وقد أدهشنى أن المهندس المصرى كان راغبًا بشدة فى زيارة بيوت «بنات الجيشا» والتعرف عليهن، وممارسة شىء من اللذة، ولم يمتنع الطبيب عن قبول الدعوة والدخول إلى عالم المغامرة الحسية.

أما أنا، فقد نفرت من الفكرة منذ اللحظة الأولى ـ دون أن أُبدى استياءً ـ وكانت أسبابى فى بعض جوانبها عقائدية، تربط بين ممارسة الجنس وفتاة الليل ومفهوم استغلال الإنسان لحاجة أخيه الإنسان، وهو جوهر مفهوم الاشتراكية دون ضجيج أيديولوجى.

أما سببى الثانى، فكان رغبتى فى الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من النقود والمتمثلة فى المبلغ الذى أودعته لحسابى هيئة (جايكا) التى بلغت حوالى ٢٣٥ ألف ين يابانى ـ بما يعادل ١٧٠٠ دولار حيث كان سعر صرف الين ١٣٠ ين لكل دولار ـ وكان علىَّ أن أقتصد فى مصروفاتى حتى أستطيع العودة ومعى ألف دولار لأسدد ديونى المتراكمة من أثر زواج منذ لحظته الأولى يحمل بذور فشله.

لا أدرى لماذا لم أنسجم منذ اللحظة الأولى مع ذلك المهندس المصرى، الذى بدا لى نموذجًا لمعنى «المصرى الحلنجى» بالمعنى العامى لتلك الكلمة، على عكس الطبيب المصرى الذى بدا ـ برغم انسجامه الواضح مع صديقه المهندس ـ أكثر رقيًّا ومودة وإنسانية.

على أية حال، كان لدخول «مريام» إلى حياتى فى هذه الفترة تأثير هائل فى تمتعى الحقيقى بالمدن اليابانية، وغيرت تمامًا من أسلوب تفكيرى فى التعامل مع السياحة والتجول فى المدن اليابانية التى قدر لنا زيارتها من خلال برنامج الزيارات الدراسية Study tours التى يديرها اليابانيون بكفاءة اقتباسًا من حلفائهم الأمريكيين.

فى اليوم الأول من البرنامج التدريبى حضرت منسقة الدورة Coordinator، وهى سيدة يابانية تجاوزت الخمسين عامًا من عمرها، شديدة الرقة والتواضع، تتولى أمور الترجمة من اللغة اليابانية إلى اللغة الإنجليزية وبالعكس، بالإضافة إلى تولى الأمور التنظيمية الأخرى للبرنامج مثل مواعيد المحاضرات، والزيارات الدراسية، وتتلقى

استفسارات أعضاء الفريق الذين لم يزد عددهم على ثمانية عشر عضوًا، وكذلك تتولى بعض الأمور المعيشية.

كان الاجتماع الصباحى الأول إجرائيًّا، تسلمنا فيه بطاقات البنك (فيزا كارت) وأرقام حساباتنا، واطلعنا على خط سير البرنامج التدريبى وغيرها من الأمور.

كان المشاركين فى الدورة التدريبية من إحدى عشرة دولة تبدأ من البرازيل وألبيرو فى أمريكا اللاتينية، مرورًا بنيجيريا ومصر وماليزيا والفلبين والسودان وإيران وتركيا. وتصادف أن جاء موقع جلوسى وفقًا لترتيب الحروف الأبجدية الإنجليزية بجوار السيدة «مريام شللتر روزنبرج» البرازيلية، وكانت «مريام» امرأة من أجمل وأرق الكائنات الإنسانية التى صادفتنى فى حياتى.

فى الأسبوع الأول من البرنامج، أصبت بما يشبه «الصمم»، فلم أكن أستطيع متابعة المتحدثين بصورة جيدة، وبعض العارفين والمجربين فى هذا النوع من البرامج عبر البحار Overseas أخبرنى، أنها تحدث بسبب رحلة السفر الطويلة من ناحية، وصدمة استخدام اللغة الإنجليزية فى إدارة حوار لأول مرة تقريبًا من ناحية أخرى.

ومن هنا فلم أستطع خلال الأسبوع الأول من إقامة صداقة جيدة مع بقية أعضاء الفريق، باستثناء ذلك الشاب الإيرانى «أشرفى» والزميل السودانى «عبد السلام»، كانت إنجليزية «أشرفى» معقولة يمكن التواصل معها، أما «عبد السلام» وهو المدير العام برئاسة مجلس الوزراء السودانى والمتعاطف مع «انقلاب الإنقاذ» الذى جرى توًّا فى السودان فقد كان ملاذى حينما أتعثر فى بعض الموضوعات، أو أرغب فى إدارة حوار إنسانى مفهوم.

مضى الأسبوع الأول، ووجدت نفسى منطلقًا فى الأسبوع الثانى، سواء فى التعبير عن نفسى وقضايانا المصرية والعربية بصورة جيدة، أو فى فهم أحاديث بقية أعضاء

الفريق وأفكارهم ـ فيما عدا الزميلين النيجيرى والماليزى ـ وقد ساهم وجود المنسق العام للدورة وبعض مندوبى العلاقات العامة من هيئة (جايكا) فى تذويب المسافات واقترابها بين أعضاء الفريق عبر الزيارات الدراسية التى كانت أقرب إلى الرحلات المدرسية التى كنا نقوم بها فى الكلية أو المدارس. وخلالها زرنا معالم «طوكيو» وتلك المدينة الرائعة الجمال والعاصمة السابقة لليابان، وعاصمتها الدينية حتى يومنا «كيوتو»، ثم أخيرًا مدينة العذاب الإنسانى على مر التاريخ «هيروشيما»، كما قمنا بزيارة بعض المصانع اليابانية الكبرى مثل شركة «نيسان» لصناعة السيارات، وبعض الوزارات والمؤسسات الحكومية.

وقد ساعد على سرعة التفاعل بين الحاضرين والخبراء اليابانيين، وأساتذة الجامعات فيها، أن مستوى إجادتهم للغة الإنجليزية كان دون المستوى المتوقع، وفى متناول الحاضرين.

ولعبت صداقتى لـ «مريام» دورًا رائعًا فى تغيير نمط تحركى فى اليابان الذى كان مشدودًا وراء فكرة الادخار المالى وتجنب الإنفاق من أجل العودة بمبلغ مالى يمكننى من التخلص نهائيًّا من تلك الديون الكئيبة ومن عادتها أيضًا.

كانت «مريام» وكأى امرأة أوربية، من أب ألمانى ومن أم إيطالية، خليطًا جميلًا، بين خصائص الطبيب الألمانى المجد فى عمله والدقيق، وبين رقة امرأة إيطالية وحيويتها، فأخذتنى أخذًا للتعرف على معالم شوارع «طوكيو»، وكل مدينة قدر لنا زيارتها والإقامة فيها، فتجولنا فى سوق منطقة «شيكوكو» بالعاصمة الحافلة بجميع أنواع المنتجات الكهربائية وآلات التصوير من جميع الأصناف والأنواع.

ويدهشك أن اليابانيين هم ملوك المساومة فى البيع والتجارة، فليست هذه سمة مرتبطة بمصر وشعوب العالم الثالث فحسب، بل إنها امتدت إلى المتاجر اليابانية، وتستطيع أن تحصل على خصم فى حدود ربع القيمة المعلنة منذ اللحظة الأولى،

وبقدر ذكاء التاجر اليابانى ومرونته، تكون روحه المداعبة والسمحة، وابتسامته التى تجبرك على الشراء.

وبصحبة «مريام» تجولت واستمتعت بأجمل أيام حياتى روعةً وحنانًا، وما زالت بتفاصيلها محفورة فى ذاكرتى تلك الليلة الجميلة يوم السبت الثالث والعشرين من مايو ـ أى بعد مرور حوالى أسبوعين على بدء البرنامج والتعرف على هذه السيدة الرقيقة ـ عندما ذهبنا معًا بصحبة بقية أعضاء البرنامج لزيارة «ديزنى لاند طوكيو»، قضينا فيها أجمل يوم فى حياتى، وعندها أدركت كم هم أولادنا محرومون من الكثير من متع الحياة واللعب، خاصةً ذلك المسرح الرائع المسمى «ديزنى لاند» رقصنا معًا، وتسابقنا جريًا فى ساحة المكان الواسعة، وفى المساء كانت «مريام» تمضى أول ليلة فى صحبة شاب مصرى تعلقت به وتمنت أن ترتبط به بقية حياتها، وظلت تراسله لخمس سنوات متواصلة بعد تلك الليلة الحانية، ولكن القدر كان يقرر لشىء آخر تمامًا.

وأعترف .. كانت «مريام» من أجمل وقائع حياتى روعةً، ولولاها ما كنت لأستمتع فترة خمسين يومًا فى «رحلة العمر» و «جنة عدن» التى تذكرها الكتب الدينية المقدسة. كانت «مريام» وما زالت فى ذاكرتى حورية تلك الجنة التى كتب علىَّ أن أعيشها لحظة بلحظة، ويومًا بعد يوم.

وقد أضافت تلك التركيبة النفسية والوراثية الرائعة لـ «مريام» طابعًا سحريًّا غامضًا، فهى المولودة لأم إيطالية، وأب ألمانى مهاجرين إلى البرازيل، فجاءت «مريام» أوروبية الوجدان، لاتينية الروح، برازيلية القوام والجسد.

رحلة إلى العاصمة الدينية لليابان

تضمن برنامج الزيارات المقررة السفر إلى مدينة «كيوتو» Kyoto، وهى العاصمة القديمة لليابان، فى عصر أسرة «جوا» الإمبراطورية، حتى جاء الإمبراطور «ميجى»

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وأنشأ عاصمةً جديدةً للدولة أطلق عليها «طوكيو»، فى إطار محاولته للتحديث الشامل للدولة والمجتمع وإصدار دستور جديد عام ١٨٦٨.

وبقدر حداثة «طوكيو» وجمالها ونظافتها، ودرجة الانضباط والنظام اللذين تتحلى بهما، وسكانها ـ البالغ عددهم حوالى اثنى عشر مليونًا ـ فإنها لا تقارب روعة كيوتو وسحرها.

إنها قطعة من الجنة .. دون زيادة أو نقصان.

وتضفى كثرة المعابد «البوذية» ذات الاتجاه الشنتونى ـ إحساسًا غريبًا وغامضًا من السكينة والهدوء.

وإذا كان اليابانيون قد تفننوا فى استغلال كل بوصة من أراضيهم، وحواف أنهارهم الصغيرة ـ التى هى أقرب إلى الترع المصرية ـ وكذلك فى زراعة جوانب الطرقات الطويلة، وإضفاء اللون الأخضر على مناطقها كافة، فإن «كيوتو» هى الخضرة ذاتها، وشلالات المياه بعينها، وينابيع الأنهار بتدفقها دون لحظة انكسار واحدة.

ولم تكن كل هذه الروعة من صنع الطبيعة وحدها، بل كانت أيدى الإنسان المبدعة واضحة وبارزة فى كل موطن جمال فى تلك المدينة، إن اليابانيين هم صناع الحياة، بقدر ما كانوا صناع الموت قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها، وبقدر ما باتوا ضحايا قنابل الموت والدمار فى أغسطس من عام ١٩٤٥ فى مدينتى «هيروشيما» و «نجازاكى».

ولأن اليابانيين يقدرون ويقدسون ماضيهم، فقد تركوا مئات «البيوت» والقصور والقلاع الإقطاعية، المصممة بصورة فريدة، والمقامة من خشب البلوط، والمحاطة بحدائق لا نظير لها، فقد عرضوها للزائرين، وللأجيال الجديدة من أطفال اليابان وشبابها، ليعرفوا ويكونوا شهودًا على عراقة حضارتهم التى تتجلى بأكثر ما يكون فى

طرزهم المعمارية الفريدة، وفى تلك العلاقة العميقة والساحرة بين طبيعة الجغرافيا وإبداع الإنسان اليابانى.

كانت «كيوتو» ـ وسوف تظل ـ فى وجدانى وعيونى أجمل مدينة رأيتها فى حياتى، حتى بعد أن توافرت لى فرص زيارة الكثير من المدن الأوروبية والعربية، فقد ظلت «كيوتو» هى أجملها على الإطلاق، وتمنيت أن أعود يومًا لزيارتها والبقاء فيها، ما سمحت بذلك الظروف وأنفاس العمر.

تقرير مصرى .. يكسب أصدقاء جدد

يومان فى «كيوتو»، عدت بعدها عاشقًا للمدينة ولليابان كلها، لبساطة شعبها، كان يكفيك أن تردد كلمة يابانية واحدة أمام أحد اليابانيين أو الفتيات اليابانيات، لتجدهن وهن يكاد يسقطن على الأرض من فرط السعادة والضحك، وكانت الكلمة المفتاح هى «سا ميماسان» والتى تعنى بالإنجليزية من فضلك أو إذا سمحت Excuse me أو please، وبعدها تتحدث وتسأل كما تشاء. فعلتها كثيرًا، فى صحبة«مريام»، أو عندما أجد نفسى تائهًا فى مكان ما فى المدينة.

وحل يوم تقديم التقرير الخاص بمصر Country report presentation وفقًا لنظام البرنامج التدريبى، حيث ينبغى أن يقدم كل مشارك فى البرنامج تقريرًا حول أوضاع بلاده سواء الاقتصادية أو الإدارية، وهو النظام المقتبس من البرامج الأمريكية، بما يتيح للدولة المضيفة وأجهزتها المتخصصة جمع وتخزين تلك المعلومات فى ملفات خاصة بالدول، يجرى استخدامها فيما بعد عند الضرورة، إذا كانت معدة جيدًا وتحتوى على معلومات مفيدة.

ولأنه لم يسعفنى الوقت فى القاهرة فى إعداد مثل هذا التقرير، فقد قمت على عجل بإعداده فى «طوكيو» وقررت أن أربط بين أوضاع مصر الاقتصادية والإدارية

غير الناهضة، بطبيعة الخطر والتهديدات التى تواجهنا فى المنطقة، وربطت بين هذا والانتفاضة الفلسطينية التى كانت قد اشتعلت منذ عدة شهور سابقة (ديسمبر ١٩٨٧ حتى أوسلو ١٩٩٤)، فربطت بين هذا وذاك، وقد أدهشنى التجاوب الكبير الذى حظى به تقريرى وسط زملائى فى البرنامج، باستثناء المشاركين من بيرو وتركيا، أما «مريام» فقد كانت نظرات التشجيع والتأييد بكل ملامحها الجميلة، أعز ما تلقيت من تأييد وترحيب.

هيروشيما .. مهبط الأحزان البشرية

الطريق إلى هيروشيما هو الطريق إلى الأشواك، حيث الذكريات المؤلمة لقصف الأمريكيين للمدينة بالقنابل الذرية يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥، والطريق إلى هيروشيما هو المسار النفسى الداخلى العميق إلى المخاوف والهواجس والظنون، فما زال العقل يستبطن كل الأحاديث حول أثر الإشعاعات الذرية التى قدر أنها سوف تستمر لعقود وراء عقود مخلفة وراءها ظواهر الأمراض المستعصية.

وطوال الطريق الذى لم يستغرق سوى ساعتين بأسرع قطار فى العالم الذى يطلق عليه اليابانيون «شينكنسين» shenkansen أو ما يطلق عليه فى الغرب «القطار القذيفة» poll train، أخذت المشاعر المضطربة والمتناقضة إلى أغوار أعماقى الحزينة.

فالخوف حاضرًا لا شك داخلى، والشوق أيضًا حاضر فى مداركى، ورغبتى فى اغتنام فرصة، ربما لم تتح لملايين البشر لرؤية آثار الجريمة الأمريكية ضد الجنس البشرى. يفزعك ما ترى هناك، خاصة فى متحف المدينة المخصص لتلك الجريمة البشعة.

وبرغم أن المدينة كبقية مدن اليابان، تتميز بالجمال والنظام والنظافة، وانتشار الخضرة فى كل بقاعها وميادينها، فإن هناك شيئًا ما يختلف، فدرجة الحرارة هنا تشعرك

بأنك فى صيف مشابه لمناخ الشرق الأوسط، نحن هنا فى إحساس بالحر والرطوبة، وارتفاع درجة الحرارة عن بقية المدن اليابانية ملحوظ ومحسوس.

بعد عودتى من المدينة، أمسكت بالقلم، وأكملت مقالتى التى بدأتها منذ الليلة الأولى لى فى تلك البلاد الجميلة الساحرة، وجسدت إحساسى بهذه الكلمات:

«طوكيو .. نافذة على سحر الشرق»

لحظة الشفق فوق سماء طوكيو لها سحرها الخاص، هنا تتناغم حمرة الشمس الداكنة بالمروج الخضراء، فى تحدٍّ لبؤرة العين المصرية المصحوبة عادة بتلك المشاهد اليومية من سكون المقبرة.

أخذتنا الطائرة فى عباب السماء فى رحلة المغادرة، مصرنا تبدو حزينة، يكسوها اصفرار الرمال، لون الغربة. يومًا وزيادة معلقين فى السماء بين السحاب وروعة المشاهدة: جدة، الكويت، كراتشى، بنكوك، ثم أخيرًا ها هى «طوكيو» عاصمة الشرق، نعم إنه المعنى الحرفى لكلمة «طوكيو» فى اللغة اليابانية، تلك المدينة التى تحمل فى أعماقها سحر الشرق الأقصى، وطابعه الخاص الغامض، وهى فى هدوئها، واحترام وأدب أهلها الجم، تخفى بعضًا من جروحها بتلك المساحيق الغربية الطابع، والأمريكية اللكنة.

ناطحات السحاب تطاول فى الأعين الفاحصة والسكينة والانزواء، أمامى وعلى مرمى البصر من نافذتى تقف أربعة منها، وفى قمتها الفارعة تلك الإشارات الضوئية الحمراء.

لا أدرى لماذا قفز إلى مخيلتى فتيات لعوب.

غشاء الليل هنا ينطوى خجلًا فى الساعة الثالثة والنصف فجرًا تقريبًا، فتأخذ خطوط النهار فى المزاحمة شيئًا فشيئًا، فتقع عيناك على «طوكيو» الجميلة .. النظيفة، والخضراء.

أسفل نافذتى مباشرة مروج خضراء، وملعب للتنس، وبين هذا وذاك تترامى مبانٍ متوسطة الارتفاع، بيضاء وكأنها ترتدى أجمل ما لديها لزوار العاصمة. إنها لحظة من لحظات سرقة الراحة والهدوء والسكينة .. نعم لحظة النسيان من الهموم والأوجاع المصرية، ولو إلى حين.

فى طوكيو، أو كيوتو ـ عاصمة اليابان القديمة ومركزها الدينى إلى يومنا ـ لا تقع عيناك إلا على كل ما هو نظيف ومنظم، كل شىء يوحى إليك بعظمة الإنسان وجدله المبدع والخلاق مع الطبيعة ومحدودية عطائها أحيانًا. فمساحة اليابان لا تتعدى ١/٢٥ من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، أو قل أنها أكبر قليلًا من ثلث مساحة مصر، والثروة الطبيعية فيها تكاد تكون محدودة، ولكنها فى علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالأرض تكاد تصل إلى قمة الامتداد وعمق الاتساع.

عبر تجارب عديدة، وحشية وقاسية، حفرت اليابان تجربتها الإنسانية الخاصة، إنها محفورة فى الذاكرة، تلك الهزيمة والدمار اللا متناهى، دفعتها حقائق الجغرافيا إلى التعامل بمنطقها الخاص، فمساحة الأرض المحدودة فى بلد يبلغ تعداد سكانه مائة وعشرون مليونا من البشر، تجعل من الضرورى أن يكون الاتساع السكانى فى امتداده الرأسى، فجاءت ناطحات السحاب، صحيح أنها اقتباس أمريكى، ولكن وراء كل منها فهمًا وقيمةً، فهى فى الطراز الأمريكى رغبة فى الاستعلاء على الآخرين، بينما فى الحالة اليابانية تعامل مع الضرورة، أنه الاعتبار العملى ليس إلا.

لكن يدهشك على الجانب الآخر، ذلك التجاور غير المنطقى بين ما حققه المجتمع اليابانى وأهله من امتلاك مفاتيح أحدث تكنولوجيا فى عالمنا المعاصر من جهة وممارسة الخرافات والشعوذة الدينية من جهة أخرى.

فالزائر للمعابد البوذية فى العاصمة اليابانية «طوكيو»، أو تلك المعابد الهائلة فى العاصمة القديمة «كيوتو» يفاجأ بهذا القدر الهائل من الأحجبة .. نعم الأحجبة.

إنها عادة يابانية قديمة ممتدة فى عمق التاريخ تغرس بنصلها الحاد حقائق الحاضر وروعته. وأعياد اليابانيين ـ خاصة الشباب والفتيات دون سن الثامنة عشر ـ تصحبها عادة بعض الأمنيات والأدعية، تجد طريقها فى صورة كلمات محفورة على ألواح خشبية صغيرة، أو أوراق تعلق جميعها فى لوحات خاصة بالمعابد أو على جذوع بعض الأشجار المقدسة. إنها سخافات الماضى تتحدى كل إبداعات الحاضر وآفاق المستقبل.

فى زوايا شوارع طوكيو الشهيرة (الجينزا، شينجكو ... إلخ) تتراص صباح كل أحد عشرات الفتيات فى طوابير طويلة فى انتظار دورهن فى قراءة الطالع، أو الكف، إنها مهنة جديدة وقديمة تحمل معانى القلق والترقب وانعدام الرؤية أو اليقين لدى جيل جديد فى اليابان، كيف مع كل هذا التقدم والتحقق العلمى الهائل؟ سؤال مازلت أبحث له عن إجابة.

اليابان وتمثل الثقافات والأديان

طوال تاريخها الطويل، لم تفرض اليابان ثقافتها الخاصة، بل على العكس لقد ظلت اليابان على مر العصور هى المترقب لثقافات الآخرين والمتمثلة لها بعمق، إنه جدل اليابان وسرها الخاص، فالعقيدة البوذية التى يدين بها معظم سكان البلاد منذ عشرة قرون أو يزيد، جاءت إليها من كوريا أو خليج منشوريا كما يسمونه، والكونفوشية تلك الفلسفة الصينية الشهيرة، مارست تأثيرها على الشعب والناس هنا لعدة قرون أخرى، صحيح أن كلًّا منهما قد اختلط بالعادات والقيم اليابانية لكنهما ظلا فى سجل ثقافة الآخرين وعقائدهم، والآن العصر هو عصر السوبرمان الأمريكى، وهكذا أقبل اليابانيون ـ خاصة الأجيال الجديدة ـ دون تردد على ثقافة الوافد أو الغازى الجديد، إنه اقتحام للميدان بقوة القنبلة الذرية، وخلق مجتمع جديد غربى الطابع والطراز، ولا أجاوز إذا قلت والسلوك.

على الزائر والمراقب للحياة اليابانية، أن يلحظ التزاوج والتشابك بينهما، أحد أهم خبراء اليابان الاقتصاديين «البروفيسير هورنو» قال:

– إن اليابان والولايات المتحدة قد تزوجا.

ثم استطرد ضاحكًا:

– لكننا لا نعلم بالضبط من هو الزوج، ومن هى الزوجة فيهما.

نعم .. عليك أن تلحظ ذلك، الجيل الجديد أمريكى السلوك والملبس وطريقة الغناء، ورقص يوم الأحد فى شوارع «طوكيو»، والجيل القديم بقدر انبهاره بذلك السوبرمان الأمريكى، بقدر ما تحمله الذكريات من كراهية دفينة، وتحدٍّ ممزوج بالاستعلاء، فعليك ألا تنسى قنبلتى «هيروشيما» و «نجازاكى».

زيارة إلى «هيروشيما»

ينتاب المرء إحساس بالفزع والرجفة، كلما سمع اسم «هيروشيما»، ذلك هو إحساسى بالضبط قبل أن أتوجه إلى هناك، الغبار الذرى .. التغير المناخى .. بقايا الإشعاع الذرى ... إلخ، تلك الصور فى المخيلة الإنسانية.

تذهب بك التصورات إلى بعيد، سرت فى عروقى رعشه خفيفة عندما جاء صوت مذياع قطار «الشينكنسين»، الذى يطلق عليه فى الغرب القطار القذيفة «بولى ترارين» poll train، وهو أسرع قطار فى العالم قائلًا:

– نحن الآن فى مدينة هيروشيما.

المدينة من أجمل بقاع اليابان، كل شىء فيها منظم ونظيف، واللون الأخضر يطغى بحيويته على ما عداه، الأنهار تخترق شوارع المدينة فتحيلها إلى منتجع لراحة الأعصاب، خاصة إذا كنت قادمًا مثلى من إحدى دول العالم الثالث.

قلعة «هيروشيما» التى دمرتها القنبلة الإجرامية، أعيد بنائها على الطراز القديم نفسه، وهى بشكلها ومحتوياتها وموقعها الحصين فى أحضان النهر، والربوة العالية نموذج لتاريخ إقطاعى عتيد.

وجاء موعدنا مع مهبط الأحزان الأبدى «متحف القنبلة الذرية»، إنها البشاعة والهمجية مجسدة فى تاريخ البشر ضد البشر، ومهما امتلك القلم من قدرة على الوصف والعرض، فسوف يعجز عن تجسيد حالة الفزع والهلع التى أصابتنا من هول ما شاهدنا ورأينا، بقايا بشر .. أظفار استطالت .. لحم بشرى تمدد من درجة الحرارة الهائلة (٥٠٠٠ درجة فهرنهيت)، وآخر انكمش من هول الفجيعة .. ظل إنسان اختفى وذاب جسده بسرعة تفوق وتتجاوز سرعة اختفاء ظله، فبقى الظل واختفى الإنسان!.

فى سجل الذكريات كتبت «سوف أناضل من أجل ألا تتكرر تلك المجزرة البشرية البشعة، وسأشارك كل الداعين فى عصرنا من أجل نزع السلاح الذرى فى كل مكان، وعلى العالم أن يتذكر أننا فى الشرق الأوسط مهددون بالسلاح النووى للعنصرية الإسرائيلية».

تحية وعتاب

فى رحلة العودة خيرتنى هيئة التعاون الدولى اليابانية (جايكا) وهى الجهة المضيفة، بين أن أعود على الطائرة اليابانية حتى العاصمة التايلاندية (بانكوك)، ومنها استقل الطائرة السويسرية إلى أبو ظبى، وأنتقل بعدها إلى الطائرة المصرية إلى القاهرة، أو أن انتظر يومًا آخر فى طوكيو، ثم أستقل الطائرة المصرية من «طوكيو» إلى القاهرة مباشرة ودون انتظار فى أى مطار آخر.

وأعترف بأنه لفترة طويلة من الزمن أخذتنى عوامل الحيرة والتردد، ذلك أن الاختيار الأول بقدر مشاقه ومتاعبه، إلا أنه يتيح لى فرصة ربما لن تتكرر فى حياتى كثيرًا، وهى

فرصة رؤية ومعايشة ومقارنة ثلاث مستويات من الخدمة والضيافة الجوية، صحيح أننى قد سافرت فى رحلة المغادرة على الطائرة اليابانية (JAL)، وأدهشنى ذلك التنظيم الراقى والخدمة الممتازة، وابتسامات طاقم الضيافة التى لم تنقطع، ولكنها هذه المرة سوف تتيح لى ما هو أكثر من الشركة اليابانية.

وبعد فترة تردد، حزمت أمرى وقررت العودة مباشرة على الطائرة المصرية، وهالنى ما حدث.

ففى طابور طويل انتظرنا وقوفًا أمام بوابة الطائرة المصرية، فحاجز الأمن المصرى هنا يأتى بعد تفتيش السلطات المحلية، تفتيش الحقائب يتم بصورة دقيقة ومملة، وعلى الوجوه اختفت الابتسامات، ورجال الأمن المصريون مرهقون من طول الرحلة وعناء المسئولية، ولم يكلف مدير الفرع المصرى للشركة فى «طوكيو» نفسه عناء تكليف إحدى المضيفات المصريات بتولى امتصاص غضب الركاب، عبر اصطناع ابتسامة رقيقة تعتذر بها أو تخفف عن الركاب قسوة وخشونة التفتيش وصعوبة الانتظار.

احتكاك بسيط بينى وبين القائمين على هذه المهمة الصعبة، نظرًا لما لاحظته من قلق الركاب الأجانب وضيقهم وتبرمهم من الإجراءات، وبعد صعودنا أخيرًا إلى الطائرة، استقبلنى مضيف شاب، بابتسامة رقيقة ووردة جميلة، والحق فقد كان هذا هو الوحيد الذى لم يدخر جهدًا لخدمة الركاب، واستمر هكذا حتى استبدل الطاقم فى العاصمة التايلاندية (بانكوك)، لعنت الأرض بعدها ومن عليها، طاقم آخر ـ لاحظ أننى من ركاب الدرجة الأولى ـ يقدم إليك الطعام بفظاظة، ويختفى بعدها لمدة ساعة أو يزيد، ولا يظهر إلا حين يأتى إليك بالمقرر من المشروبات أو الطعام، سيدة تجاوزت الأربعين من عمرها، وشاب تجاوز العقد الرابع أيضًا، استعلاء غير مبرر، اختفت الابتسامات تمامًا، وحل محلها الجهامة من (بانكوك) إلى القاهرة، ها قد عرفت الآن سر هروب

الكثيرين من ركوب الطائرة المصرية. ولمن يعنيه الأمر فرقم الرحلة (٨٦٥) من طوكيو إلى القاهرة.

نعود إلى رجال الأمن والتحية الواجبة، فبعد أن أبديت استيائى من قسوة الإجراءات الأمنية وانعكاساتها السلبية على التسويق التجارى لشركة مصر للطيران، جاءنى مسئول أمن الطائرة وحدثنى عن المشاكل والمتاعب التى تواجهها الطائرات المصرية، وأن هذا الإجراء ضرورى نظرًا لمهارة قراصنة الجو فى تمرير أسلحة من نطاقات الأمن المحلية بالمطارات، ولفترة لم أقتنع بكل هذه المبررات والحجج، وظل كل منا على موقفه حتى وصلنا إلى مطار (بانكوك).

هناك نزلنا ترانزيت لمدة ساعة، ثم عاودنا، وبالطبع ينبغى أن تمر على نطاق الأمن المحلى (تايلاندى)، ويجرى التفتيش ذاتيًّا للأشخاص والحقائب عن طريق الأجهزة الإلكترونية، وبعدها يأتى نطاق التفتيش المصرى، وبعد أن صعدت إلى الطائرة، وإذا بى أفاجأ برجل الأمن المصرى يأتى إلىَّ مهرولًا، طالبًا منى الذهاب معه، أنتابنى إحساس بالقلق والارتياب:

- ماذا جرى؟

هل سيمارسون معى أساليبهم المعروفة من أجل تأخيرى أو تفتيشى وإزعاجى؟

هكذا قفزت التساؤلات داخلى.

وما هى إلا لحظات حتى وجدت نفسى أمام مشهد أغرب من الخيال.. قال محدثى المصرى الأسمر:

- كانت تزعجك إجراءاتنا الأمنية؟

- أجبت دون تردد:

- نعم.
- فاستطرد محدثى قائلًا:
- انظر ماذا ترى فى هذا الوعاء الصغير؟
- نظرت فانتابنى ذعر وتراجعت صائحًا:
- ما هذا؟
- أجاب الرجل بهدوء:
- ثعبان من نوع «كوبرا السام» وضعه راكب فى هذا الوعاء، وتجاوز به حاجز التفتيش التايلاندى، واستكمل حديثه:
- ماذا تتوقع لو وجدت هذا على الطائرة بجانبك؟
- لم ينتظر بالطبع إجابتى:
- سوف تقفز من شباك الطائرة.
- ابتسمت.. وابتسم معى .. ربت على كتفيه وتمنيت له التوفيق.

□ □ □